الأنساق الثقافية في الشعر الصوفي- قصيدة تجلي المحبوب للأمير عبد القادر نموذجًا

د. رضا عامـــــر- جامعة ميلة (الجزائر)

***- الملخص:**

تعدّ إشكالية خطاب الأنساق الصوفية في النص التراثي العربي مسألة معقدة جدًا لما فيه من مرجعيات فكرية وإيديولوجيات متعددة، خاصة ما يطرحة النص من إشكاليات مختلفة تؤسس لمرجعيات وفلسفات ذات توجه ثقافي مزدوج،وبشكل خاص إذا كان النص يحمل في طياته لأكثر من ثقافة،وهذا فعلا ما وجد في الأدب الصوفي و كتاب الحلاج،و وابن عربي وغيرها من المؤلفات ذات التفرع الثقافي المتعدد، وهذا في الحقيقة ماخلق خللاً في ذهن المتلقي،وخلخلخة ثقافية كبيرة من خلال تعريفه بما يحيط به من ثقافات متعددة لأمم أخرى محيطة به يتأثر بها ويُؤثر فيها.

- الكلمات المفتاحية: الأنساق- التراث العربي-الأدب الصوفي- المتلقي- ثقافات متعددة.

-*Summary:

The problem of the discourse of Sufi styles in the Arabic heritage text is a very complex issue because of its various intellectual references and ideologies, especially the different problems that arise in the text that establishes references and philosophies with a dual cultural orientation, especially if the text carries with it more than one culture. Found in Sufi literature and the book Hallaj, and Ibn Arabi and other works with multiple cultural branching, and this in fact creates an imbalance in the mind of the recipient, and a great cultural by defining the surrounding multiple cultures of other nations surrounding him influenced and influenced bay.

-* **Keywords**: formats - Arab heritage - Sufi literature- receiver - multiple cultures.

***- تمهـــــيد:**

لقد أصبح التعدد الفكري، والثقافي الإنساني في عمومه داخل بنية النص الأدبي يشكل مأزقًا حقيقيًا خاصة إذا كان النص ذو حمولة معرفية، وفلسفية ورؤية حضارية إنسانية تتجاوز البعد الجغرافي والعقدي والطائفي،وهذا ماحمله التراث الإنساني القديم بشكل عام ليسهل معه التواصل وتغطية جميع الأنساق الثقافية التي تتداخل مع مكنونات النص الأدبي بشكل مستمر وفعّال، وفعلاً قدم النص الشعري التراثي القديم مرجعية حضارية متنوعة الأوجه والدلالات تجاوزت جميع الحدود الجغرافية.

طبعًا قدم الأدب الصوفي بوجه عام نظرة عميقة للذات البشرية التي كانت تبحث عن جميع أشكال التواصل،ونقل مختلف المرجعيات الثقافية والتواصل مع الآخر في ثنائية تناظرية (**الآنا/الآخر**) دون إفراط أو تفريط فكري أو عقدي أو فلسفي،ومنه بقي أدب التصوف حلقة وصل بين مختلف الحضارات الإنسانية خاصة مسألة التبادل الثقافي،ومرجعياته المذهبية والفكرية التي أسست لعلاقات أكثر إشراقًا بين حضارات الشرق والغرب ليصبح الإنسان فيها مورد تلك الثقافات بما يحمله من حمولات ثقافية متعددة تعيد للإنسانية وجودها الجمعي،فعُدت تلك الثقافات المترامية الأطراف تجسد تراكمًا ثقافيا يتشارك الجميع في إنتاجه بشكل مستمر دون إشكال فكري يحول أثناء عملية التواصل الفكري،وهذا الأمر جعل من النسق الثقافي عند كل مجتمع له خصوصية في تكوينه المعرفي، فمثلا الثقافة العربية الإسلامية لها خصوصية تجعلها تتمايز عن غيرها من الثقافات الإنسانية خاصة الثقافة الغربية المسيحية وغيرها من الثقافات الإنسانية.

ولعلّ الشعر الصوفي،وماقدمه للثقافة الإبداعية من إنتاج فكري إنساني،ومع ذلك بقيت ثقافة التصوف الشعري بحاجة ماسة إلى إعادة قراءة نقدية أكثر وعيًا من خلال مناهج نقدية تستطيع قراءة المضمر من الأنساق الصوفية، وفكّ شفرتها العلاماتية تدريجيًا من أجل تحديد مايحمله النص من تجارب بشرية،ومعارف سوسيولوجية، وثقافية باتت تشكل الأطر النصية للغة النص الصوفي ثقافيًا .

أ- أهمية الدراسة:

هذه الدّراسة تعدّ من الدراسات النقدية المعاصرة،إذْ تتناول نص تراثي شعري وفق المنهج الثقافي،وعلاقته بقراءة التراث الصوفي العربي القديم،وبشكل خاص مسألة خطاب الأنساق الثقافية وتعددها داخل النصوص العربية القديمة،وماتحمله من تعددية فكرية، ومعرفية على مرّ العصور التاريخانية ليصبح النص في ظلّ المنهج الثقافي إنتاجية إنسانية جمعاء لكونه نص حبلى لمختلف الثقافات بداية من الثقافة العربية الإسلامية إلى الثقافة المسيحية إلى الفارسية والهندية والصينية والسريالية واليونانية والرومانية,,,إلخ،وبذلك أصبحت الأنساق الثقافية المضمرة في تلكم النصوص الشعرية الصوفية بشكل خاص بمثابة عتبة حقيقية لحوار ثقافي إنساني متعدد سوف تكشف عنه قراءتنا لنص قصيدة (**تجلي المحبوب**) للأمير

عبد القادر الجزائري،وما في هذه القصيدة من حوار ثقافي وأنساق صوفية، معرفية متعددة بين الحضارة العربية الإسلامية، وبقية الحضارات الوثنية الأخرى.

ب- إشكالية الدّراسة:

تدور إشكالية البحث حول مأزق قراءة الخطاب الشعري الصوفي وفق المناهج النقدية المعاصرة ومن بينها المنهج النقدي الثقافي،والذي بات يشكلّ معضلة حقيقية لغياب العديد من الأدوات الإجرائية الخاصة بالقراءة النقدية الواعية وفق هذا النوع من المناهج،بداية من أصول المنهج، وفلسفته،وصولاً إلى غياب الرؤية الميّسرة لقراءة النص الشعري الصوفي،وخاصة القديم منه وفق النقد الثقافي،وما يحمله هذا الأخير من تعدد الرؤى والأفكار والتوجهات النقدية والمذهبية بداية من مدرسة الثقافية النفسية/ السلوكية الأمريكية وصولاً إلى (**مدرسة فرانكفورت**) الثقافية لينتهي المطاف بالمنهج الثقافي إلى التمازج مع المنهج الأنثربولوجي وعليه تعددت تلكم الفلسفات النقدية التي أصحبت ترى النقد الثقافي حالة نقدية معاصرة لابدّ من خلالها من في قراءة التراث الصوفي القديم بمناهج معاصرة،وعليه نطرح الإشكال الآتي:"**هل تمكن النقد الثقافي من قراءة النص الشعري الصوفي قراءة نقدية واعية؟**" وهذا ماسيحاول البحث الإجابة عليه تدرجيًا من خلال استعرض المحطات الثقافية المتعددة الأنساق للمقامات الصوفية،وما تؤسس له من حوارية ثقافية إنسانية واعية بشكل عام.

جـ منهج الدّراسة :

سيتمّ الاعتماد على عدد من المناهج أهمّها المنهج التاريخي لعرض الجانب النظري (**المنهج النقدي الثقافي وإشكالية القراءة للنص الشعري الصوفي**)،مع الاستعانة بمناهج أخرى من أبرزها المنهج السيميائي، والمنهج الأنثربولوجي في تأويل العلامات اللّغوية، وتحليل الأنساق الثقافية لرصد مدارات التحاور الثقافي، والتداخل بين النصوص النثرية العربية القديمة،وبشكل خاص النص الصوفي وما يحمله من حمولات فكرية وفلسفية ومذهبية ودينية، وهذا فعلاً ما وجد في (**شعر الأمير عبد القادر الجزائري**) وماساد شعره الصوفي خاصة من تفاعل ثقافي وانصهار مقامي هام بين الذات البشرية وذات الخالق،ومقامات العشق والوله فيها فيشكل في النهاية حالة من الهذيان الرباني لا شفاء منه

د- الدّراسات السابقة:

لقد تعددت الدراسات النقدية في نقد النص الشعري العربي المعاصر نذكر منها:

1- ناهضة ستار عبيد:أثر الأنساق الثقافية في تشكيل الخطاب السردي الصوفي (قراءة نقد ثقافية في حلية الأولياء والرسالة القشيرية)، مجلة القاديسية للعلوم الإنسانية،مج10،ع04، سنة2008 العراق.

2-نور الدين صدار: البطولة،الإنسان، والتصوف...،مجلة دراسات،العلوم الإنسانية والاجتماعية،مج 37، ع02، سنة2010، الجامعة الأردنية، الأردن.

3- أحمد قيطون: الرمز الصوفي في الشعر الجزائري المعاصر، مجلة مقاليد،ع04، سنة 2013، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة.

هـــ محاور الدراسة: تدور الدراسة حول محورين أساسين هما:

1- المحور الأوّل: الخطاب النقدي الثقافي وإشكالية قراءة التراث العربي

إنّ النقد الثقافي كمنهج تفكير نقدي قد أوجد لنفسه حضورًا نسقيًا متعددًا شمل العديد من المبررات المنهجية ذات الأهداف الإيديولوجية بشكل متواصل،وقد بقى التراث العربي صورة مكثفة للعديد من الثقافات التي يحملها في طياته تُصور مختلف التجارب الإنسانية المتعددة،إذ فتح هذا التراث الباب على مصراعيه حول المثاقفة الفكرية التي تجسدت في العديد من النصوص الأدبية،ومن بينها أدب السير والملاحم،وأدب الرحلات والأدب الصوفي الذي كان محطة ثقافية فكرية للعديد من الخطابات الشعرية التي نقلت مختلف المشاهد الفكرية لمختلف الديانات الإنسانية الوثنية خاصة: (البوذية/الكونفوشيوسية/المناوية/الزرادشية،الهندوسية/السيخية) للشعوب القديمة نحو:(**البابلية/الصينية الفارسية/الهندية**) وصولاً إلى الحضارات السماوية نحو:(**الحضارة الإسلامية /المسيحية/ اليهودية**).

ومع ذلك كله قد شكّل النص الصوفي الشعري بشكل خاص طفرة نوعية في عالم الشعر العربي لما فيه من حمولات ثقافية بقيت تصور مختلف المشاهد الأنثروبولوجية، والإثنية لمختلف المجتمعات والحضارات الإنسانية من خلال المنهج الثقافي الذي كان حاضرًا متأصلاً في العديد من الأنواع الشعرية، ومن بينها (**الشّعر الصوفي**)، الذي أصبح بحق "نشاط فكري يتخذ من الثقافة بشموليتها موضوعًا لبحثه وتفكيره ويعبّر عن مواقف إزاء تطورها وسماتها"[1].

طبعًا إنّ النص الشعري الصوفي في نهاية المطاف تتناص معه العديد من المواقف الفكرية والنظريات التي تعطيه مزيجًا من التفاعلات اللّغوية،والمشاهد الفولكلورية ليصبح النص في النهاية"مادة خام يستخدم لاستكشاف أنماط معينة من مثل الأنظمة السردية

---

[1] ميجان الرويلي، سعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء- المغرب،ط3، 2002،ص305.

والإشكاليات الإيديولوجية وأنساق التمثيل وكل مايمكن تجريده من النص"[2]،وإذا تتبعنا صورة النماذج الشعرية في الخطاب الصوفي وجدنا فيها العديد من مفارقات الأخبار،وغرائبية الأحداث التي تصور حالة الإنسان من اللاوعي والتيه،وتعدد موروثه الثقافي الذي بات يشمل "العرق والجنس و الجنوسة (gender) والدلالة والإمتاع"[3]، وقد سجل الأدب الصوفي في الشعر العربي تلك الصور البشرية وتعدد ثقافاتها على مرّ العصور الإنسانية لمختلف الحضارات لما" يملكونه من تراث ثقافي يميزهم عن غيرهم" [4] دون إشكال مذهبي سوى نقل تلك المعارف إلى مختلف الثقافات الإنسانية بشكل توثيقي يحدد طبيعة تلك المجتمعات ومايشكل ماضيها وحاضرها بشكل دوري تواصلي.

1-1. الخطاب النقدي الثقافي وقراءة التراث الصوفي:

في الحقيقة نجد أنّ الخطاب النقدي الثقافي قد درس التراث العربي لكن ليس بالشكل النقدي والمنهجي الذي يجب أن يدرس به لكون هذا النقد بقي "عائمًا تدخل تحت مظلته ألوان مختلفة من الملاحظات والأفكار والنظريات"[5]،وهذا ما خلق أزمة نقدية في التعامل مع هذا المنهج بشكل متواصل في مقاربته لمختلف النصوص النثرية ،ناهيك عن الإختلالات المتباينة بين النقاد، ومرجعياتهم الفلسفية في تحليل النصوص ونقدها،فوّلد بين النقاد تنافرًا نقديًا،ومنهجيًا لزم على نقدنا العربي ضرورة التعامل بحذر شديد مع تراثنا النقدي بمثل تلك المقاربات التي تبقى بعيدة عن تقديم قراءة منهجية سليمة تضمن لتراثنا النثري خاصة التميّز والإضافة النقدية للإبداع والأدب خاصة وأنّ النصوص التراثية هي" مفتاح الدخول إلى التاريخ الثقافي والاجتماعي للعصر في غيبة الشواهد المادية غير النصية على العصر" [6] .

ومنه سعت العديد من الدّراسات النقدية الثقافية لقراءة التراث النثري بشتى الطرق الإجرائية التي باتت تراها مناسبة لفهم ماجاء في مختلف النصوص الأدبية وعرض العديد من التصورات الفكرية التي باتت تكشف عن الأنساق الثقافية، وعلاقة ذلك بماهية النص المدروس من الناحية السوسيولوجية بشكل يؤسس لهويته الإيديولوجية،ولعلّ العديد من تلك

---

[2] عبد الله الغذامي، النقد الثقافي(قراءة في الأنساق الثقافية العربية)،المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء-المغرب، ط3، 2005،ص17.

[3] المرجع نفسه،ص18.

[4] البشير العربي،أنتروبولوجيا التراث(التراث كرأسمال اجتماعي) المغربية للطباعة والنشر والإشهار، تونس،ط1، 2008، ص127.

[5] ميجان الرويلي، سعد البازعي، دليل الناقد الأدبي،ص306.

[6] حفناوي بعلي، مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن، الدار العربية للعلوم- ناشرون، بيروت-لبنان، ومنشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2007، ص63.

الدراسات باتت متباينة في دائرة النقد العربي نظرًا لمرجعيتها المتباينة،وهذه الدراسات التي تم إحصاؤها،هي كالآتي:

المؤلف	عنوان الكتاب	دار النشر وتاريخ الطبع
تيري إيغلتون- ترجمة ثائر ديب	فكـــــــرة الثقافة	دار الحوار، سوريا(ط1/ 2000م)
أرثر ايزابرجر- ترجـــــمة وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسي	النقد الثقافي-تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية	المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة- مصر، (ط1/2003م)
إدوارد سعيد،ترجمـــــــة كـــمال أبوديـــب	الثقافة والإمبريالية	دار الآداب،بيروت- لبنان(ط3/ 2004م)
عـــــــبد الله الغذامي	النقد الثقافي- قراءة في الأنساق الثقافية العربية	المركز الثقافي العربي، بيروت- لبنان، (ط 3 / 2005 م)
عـــــــبد القادر الرباعي	تحـــــــولات النقد الثقافي	دار جرير للنشر والتوزيع ، عمّان- الأردن، (ط1/ 2007م)
ميجان الرويلي و سعد البازعي	دليل الناقد الأدبي	المركز الثقافي العربي ،الدار البيضاء- المغرب ،(ط2 /2002م)

والدّراسات النقدية السّالفة للذكر بقيت تتأرجح في نقدها بعد اعتمادها على منهجيات غير موحدة في دراسة النصوص الأدبية،ومن ثمة تقديم قراءات نقدية متباينة حول طريقة النقد منهجيته،مرجعيته النقدية، الأدوات الإجرائية المستخدمة في النقد، المعايير النقدية المعتمدة في الدراسة والنقد،وهذا الأمر خلق أزمة كبيرة على مستوى المنهج،والبدائل التي يجب أن تستخدم في المقاربات النقدية لكون هذا "النقد الثقافي يتصل في النظرية الغربية بعدة مداخل، ومصطلحات نقدية متداولة في تلك النظرية: التاريخانية الجديدة،التحليل الثقافي، أو الشعرنة الثقافية، والدراسات الثقافية،والنقد الثقافي، والمادية الثقافية، ناهيك عن مفهوم الثقافة والمجتمع"[7]، الأمر الذي زاد في تشعب هذا المنهج هو كثرة المصطلحات النقدية ومرجعيتها إمّا **(فرانكفونية** أو **إنجلوسكسونية)** الأمر الذي شعّب المسافة بين النقاد في

---

[7] حفناوي بعلي،مدخل في نظرية النقد الثقافي والمقارن، ص173.

تطبيق هذا المنهج بين النقاد المشارفة أصحاب المدرسة التاريخانية الجديدة الأمريكية أو النقاد المغاربة أصحاب مدرسة فرانكفورت الألمانية،وهذا التشعب خلق خلخلة في المرجعيات/المفاهيم/ المصطلحات بين الجميع داخل المؤتمرات وقاعات المحاضرات بين هؤلاء وهؤلاء لذلك " لاينبغي أن يتوقف الناقد الثقافي عند حدود العرض والتحليل بل عليه أن يتعدى إلى دراسة الأنساق الثقافية "[8]،ودون ذلك تبقى القراءة سطحية لاتتوغل في عمق ثقافة النص الفكرية .

2-1. أزمة الخطاب النقدي الثـــقافي:

تشعبت أزمة النقد الثقافي منذ ظهوره كمنهج نقدي،وازدادت مشاكل التعامل به وتطبيقه على مختلف النصوص الأدبية،ومرجعياتها الثقافية لما فيه من بنى متشعبة، ودلالات متعددة جعلت من النص الأدبي محصورًا في زاوية رؤية واحدة، كما أنّ بنية النسق وفعاليته لم تضيف شيئًا جديدًا للنص ناهيك عن تكرار الأدوات الإجرائية في مقاربة النص دون تجديد،هذا الأمر عجّل بتخلي العديد من النقاد عن مقاربة النصوص به،وكذلك مسألة التشعب المتعدد لمصطلحاته الفلسفية التي رغم محاولة العديد من نقادنا تبسيطها للمتلقي العربي غير أنّها بقيت في دائرة المبهم في توظيفها نظريًا أو تطبيقها إجرائيًا لكون" النقد الثقافي لايدور حول الفنّ والأدب فحسب،وإنّما حول دور الثقافة في نظام الأشياء بين الجوانب الجمالية والأنثروبولوجية، بوصفه دورًا يتنامى في أهميته،ليس لما يكشف عنه في الجوانب السياسية والاجتماعية فقط بل لأنّه يشكل كذلك النظم والأنساق والقيم والرموز" [9].

كما إنّ التباين النسقي بين النقاد في عملية التنظير، والتطبيق لنظرية الأنساق الثقافية خلق تنافرًا منهجيًا بين جميع النقاد العرب مما خلق تشويشًا في استقبال هذا المنهج والتعريف به والتأصيل له تدريجيًا في جميع مراحله النقدية ناهيك عن تعدد عملية الترجمات غير المؤسسة في استخدام مختلف المصطلحات النقدية الثقافية التي بقيت حالة اضطراب وتذبذب متواصل،إذْ "كثيرًا ما يستخدم أصحاب الاتجاه الثقافي،مختلف المصطلحات الفنية،مثل السمات الثقافية، والمركبات الثقافية والأنساق الثقافية، والدائرة الثقافية"[10]،وهذا الأمر عجّل فعليًا بتداخل العديد من المصطلحات النقدية داخل النظرية الثقافية وجعلها محطّ نقد،وصعوبة منهجية في تطبيقاتها النظرية المتعددة،فولد في نهاية الأمر أزمة حقيقية داخل مؤسسة النقد العربي الرسمية في التعامل بحذر مع هذا المنهج،أو محدودية تطبيقاته التنظرية والتطبيقية مع جميع النصوص الأدبية فكانت تلك الإشكالات مانعًا حقيقيًا بين جميع نقاد النظرية الثقافية في التنفير من هذا المنهج والابتعاد عن تطبيقاته التي بقيت تخض سوى النسق

---

[8] المرجع نفسه،ص175.
[9] المرجع نفسه، ص218.
[10] حفناوي بعلي،مدخل في نظرية النقد الثقافي والمقارن، ص176.

الثقافي"الهامشي والمغفول عنه" [11] في مسيرة النص الأدبي الصوفي على وجه الخصوص.

2- المحور الثاني: إشكالية قراءة الأنساق الرمزية الصوفية في قصيدة تجلي المحبوب

لقد قدمت القصيدة الشعرية الصوفية للأدب العربي مادة ثقافية متعددة الأوجه بما تحمله من حمولات فكرية خاصة أنّ أدب التصوف قد سبقته نصوص إرهاصية متعددة،وما حملته نصوصهما من مادة **ثقافية/تاريخية /اجتماعية** ساهمت في إماطة اللّثام عن كثير من المجتمعات،والأمم ليصبح النص الشعري الصوفي في النهاية الأمر "نص مفتوح لايمكنه أن يسيّج في خانة محددة تُجنّبهُ بصفة معينة تضيّقُ من تحرره واتساعه وانتشاره" [12] ،وعليه نجد أنّ ظاهرة التصوف في التاريخ الإسلامي قد تناولها العديد من المبدعين والمؤلفين نذكر منهم: أبو النصر الطوسي في كتابه (**اللّمع في التصوف**)، وابن الفارض الذي لقب بـ (**سلطان العاشقين**) في شعره،والمقرّي في كتابه (**نفح الطيب**)الأصفهاني في كتابه (**حُلية الأولياء**) والقشيري في رسالته والحلاج وابن عربي في شعرهم، وغيرهم من كبار المتصوفة في التاريخ العربي الإسلامي،لـــ"يتضح أن الصوفية قد استعاروا لأنفسهم لغة مخصوصة لنقل أفكارهم ومواجيدهم،وأنهم استعملوها في أشعارهم"[13]،وعليه فقد ساهمت العديد من القصائد الصوفية في نقل مختلف صور العشق والوله النفسي تدريجيًا عبر مختلف المقامات الروحية التي تسمو بها النفس البشرية كما نشير إلى أنّ" أكثر الظواهر بروزًا في الشعر الصوفي هو اعتماد الصوفية على شعر الحبّ والخمر" [14] ،وهذا ماجعل من القصيدة الصوفية في عمومها تدور حول هذين الموضوعين الكبيرين.

2-1. الرمز الشعري الصوفي في الثقافة العربية:

لقد تخطى الرمز في (**أدب التصوف**) بكل أشكاله وأنواعه حدود الثقافة العربية بحثًا عن العالمية لما يحمله من بذور التجربة الإنسانية كمحفز حقيقي لحوار الثقافات/ الحضارات تاريخيًا،ومنه لعبت القصيدة الصوفية دورًا حاسمًا في تحقيق التقارب الفكري والمعرفي بين مختلف الثقافات الإنسانية،وقد قدم أدب التصوف للمجتمع المعرفي في ثقافتنا مادةً خامًا

---

[11] عبد الله الغذامي، النقد الثقافي(قراءة في الأنساق الثقافية العربية)،ص88.

[12] شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي(التجنس،آليات الكتابة،خطاب المتخيل)، رؤية للنشر والتوزيع،القاهرة،مصر،ط1، 2006،ص44.

[13] عدنان حسين العوادي،الشعر الصوفي حتى أفول مدرسة بغداد وظهور الغزالي،دار الرشيد،بغداد-العراق،ط1، 1997،ص230.

[14] عدنان حسين العوادي،الشعر الصوفي حتى أفول مدرسة بغداد وظهور الغزالي،ص229.

بحاجة إلى وعي نقدي أكثر جرأة،ومنهجًا أكثر شمولية لتقديم قراءة تستحق من المتلقي متابعتها،والتعاطي مع منهجها دون خلل منهجي،فكان المنهج النقدي الثقافي من خلال لغة النسق الثقافي للنص الصوفي عبر سيروروته زاوية رؤية مغايرة، ومع ذلك تبقى مسألة المنهج تؤرّق الناقد/المتلقي أثناء قراءة النص،وخاصة في الشعر الصوفي الأمر الذي دفع بالنقد الثقافي للبقاء عاجزًا أمام العديد من النصوص الشعرية الصوفية وتحديد منهجية القراءة والتحليل المناسب لأنساقها المقامية .

كما نجد القصيدة الصوفية تتعلق بالمعاني والدلالات العرفانية وعلاقة المتصوف بالخالق وصور التماهي في حبّ الذات الإلهية والعشق اللامتناهي، والتدرج في المقامات الربانية وصولاً إلى حالة من الحلول والذوبان ،ونذكر في هذا الصدد تصوف "أبي الحسن الشاذلي"،و الشيخ "عبد السلام بن مشيش" ،و المتصوف" الشيخ محمد الحافظ العلوي الشنقيطي" ،و (الشيخ التجاني)،وكذاك الأمر نفسه عند الحلاّج وابن عربي وغيرهم من المتصوفة التي احتفى بهم التراث العربي قاطبة،وعلى هذا الأساس نجد الكثير من المؤلفين الذين كتبوا عن ظاهرة التصوف في ميدان الشعر العربي نذكر بعض المؤلفين التي جمعتهم الدراسة في الجدول الآتي:

المؤلف	عنوان الكتاب	دار النشر وتاريخ الطبع
محمد عبد المنعم الخفاجي	الأدب في التراث الصوفي	دار غريب، القاهرة- مصر،ط1- د.ت
ناجي حسين جودة	المعرفة الصوفية دارسة فلسفية في مشكلات المعرفة	دار الجيل- بيروت(لبنان)،ط1- 1992.
مجدي كامل	أحلى قصائد الصوفية	دار الكتاب العربي –سوريا،ط1-1997
عادل كامل الآلوسي	الحب والتصوف عند العرب	شركة المطبوعات-بيروت(لبنان)،ط1-1999
محمد بن عمارة	الصوفية في الشعر المغاربي المعاصر"المفاهيم والتجليات"	شركة النشر والتوزيع –الدار البيضاء(المغرب)،ط1- 2000.
محمد المصطفى العزّام	المصطلح الصوفي	ندا كوم للصحافة والطباعة-المغرب،ط1-

		.2000
أماني سليمان داود	الأسلوبية والصوفية	دار مجدلاوي- عمان(الأردن)،ط1- 2002.
عاطف جودت نصر	الرمز الشعري عند الصوفية	دار الأندلس/الكندي-بيروت(لبنان)ط1-2003

و عمومًا بقيت جلّ القصائد الصوفية في التراث العربي بأنواعها وأشكالها المتعددة وثيقة تاريخية هامة في عالم الشعر العربي القديم لما تجسده من تصور عن حياة المجتمعات، والأمم في فترة تاريخية ما،وماساد تلك الفترة من أحداث اجتماعية وسياسية وثقافية بارزة نقلها المؤلّف إلى المتلقين من العلماء وطلبة العلم حتى تبقى سندًا لهم في تحقيق التواصل الفكري والمعرفي واللغوي مع الموروث ولابدّ من الإشادة بأنّ نص القصيدة الصوفية في نهاية الأمر قادت"إلى تحقيق التفاعل والتخصيب"[15]،والذي على أساسه تتحقق الغاية من النص، كما نشير إلى أنّ لأدب التصوف أبعاد مقامية لابدّ من الإشارة إليها لكونها تجسد خط طريق القصيدة كفائدة ،ومرجع هام،وهذا مايمثله الشكل الآتي:

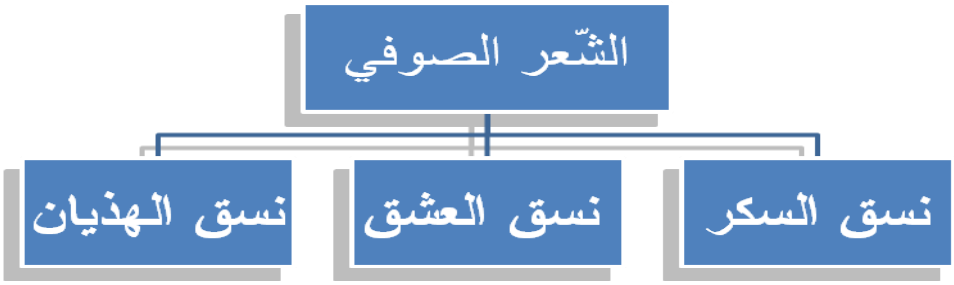

2-2. الأنساق الرمزية الصوفية في قصيدة(تجلي المحبوب) وإشكالية القراءة:

تبدو الأنساق الرمزية الصوفية التي طرحها الشعر الصوفي لدى الأمير عبد القار، وما يحمله ديوانه من تيمات وأنساق ثقافية متعددة تدل على نبوغ الشاعر في تاريخ التصوف والسير على خطى المبدعين الأوائل نحو الحلاج وابن عربي و عمر الخيام في رباعياته ،وتقمص تلكم الحالات النفسية من الإلهام والتحلل في ذات المحبوب ،والنهل من مدامة العشق، فكل هذا كان له الأثر الكبير " التأثر بمقامات الطريق الصوفي وآداب مريديه"[16]،وهذا التصور المقامي ساهم بشكل كبير في إطّلاع الأمير عبد القادر الجزائر على الفكر الصوفي العربي ،ومعرفة هويته الفكرية والحضارية كفرد يبحث عن هويته التاريخية والأدبية رغم التباين الكبير بينه،وبين التراث العربي الصوفي وإنتمائه القبلي

---

[15] شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي(التجنس،آليات الكتابة،خطاب المتخيل) ،ص150.
[16] عدنان حسين العوادي، الشعر الصوفي حتى أفول مدرسة بغداد وظهور ، ص259.

المغاربي "ليقف الشعر الصوفي على نقل معاناة تأملية مجردة تجري داخل الذات،فوصف أحوال الجذب التي تتعاور هذه الذات وهي في طريقها إلى الله" [17].

- **أولاً- نص القصيدة الصوفية(تجلي المحبوب):**

"تجلى له المحبوب من حيث يرى فأعجبه أراه من حيث لا أرى
وغيبتي به فغاب رقيبنا وزال حجاب البين وانحسم المرا
فصرت أراه كل حين ولحظة وقد كان غائبا وقد كان حاضرا
وماعرف الخلاق إلا يجمعه لضدين من كل الوجوه تنافرًا
وواصلني فلا تناكر بعد وقرّبني فكان سمعًا وباصرا
أسر إلى حيث لابين بيننا بسر حكى لطف النسيم إذا سرا
ولاطفني بقوله الحق معلنا إنّي قد اخنرت قد اصطفيت بلا أمترا
وباسطني باما ألذه قائلا تمتع وكحل بالجمال نواظرا
فقد طالما قد كنت تصبو إلى اللقا وكان جمالي بالحجاب مسترا
وكم من شهيد مات بالشوق وألفنا محب لذاك الحسن لو كان قدرا
وكم من شهيد للغرام مشاهد لبعض الذي شاهدت مات فأقبرا
وذا قيس عامر تخيل نورنا في ليلي فمات والها متحيرا
لقد سبقت بالفضل منا عناية إليك فحدث عن عطاي مخبرا
وغن ودندن لاتمل لمفند وكن فرحا بالوصل لله شاكرا
تمل وقر عينا وأنعم بوصلنا أبحنا لك الذي ترى جل ماترى
وته وتدلل أنت أهل لكل ذا فمن له مثل ذا يكن بذا أجدرا
وقد شرب الحلاج كاس مدامة فكان الذي قد كان من مسطرا
وإني شربت الكأس والكأس بعده وكأسا وكأسا شيا ما أنا حاضرا
ومازال يسقيني وما زلت قائلا له زدني ماينفك قلبي مسعرا
وفي الحال حال السكر والمحو والفنا وصلت إلى لا أين حقا ولاورا
أنا المسوي الأحمدي وراثة صقت ودك طورنا جرى ماجرى"[18]

لقد تعددت الأنساق الرمزية الصوفية في قصيدة (**تجلي المحبوب**)،حيث كانت تدور حول الأنساق الصوفية الروحانية المترامية الأطراف بين ذات المحبّ(**العاشق**) وذات المحبوب(**المعشوق**)، وكلّ تلك الأنساق الصوفية ظاهرها وباطنها تجسدت في متن القصيدة حيث كان "شعر الصوفية يمثل واقعهم،فهو شعر وجداني وفلسفي معًا،كما أنّ أدب الصوفية يمتزج بالفلسفة مثلما الفلسفة الصوفية تجنح للأدب"[19]وعليه بقيت مسألة الأنساق الصوفية في الثقافة العربية الإسلامية داخل النص الشعري متعددة فنية وجمالية متباينة،وما تحملته

---

[17] المرجع نفسه، ص227.

[18] العربي دحو، ديوان الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري(جمع،تحقيق،شرح)، منشورات ثالة،- الجزائر،ط1، 2007ص122،121

[19] عادل كامل الآلوسي،الحبّ والتصوّف عند العرب، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر،بيروت،لبنان،ط1، 1999،ص71.

تلكم الأنساق من حمولات متداخلة داخل بنية النص الأدبي لتشكل مفارقة كبيرة في التلقي لهذا التراث المشحون بتعدد ثقافي إنساني كبير،وهذا ماجسدته قصيدة(**تجلي المحبوب**) إذْ نجد "أنّ التشكيلات الجمالية والصور الفنية التي تمثل نسيجًا كليًا لتلك النصوص،ليست سوى مظهر وهمي خادع يضمر في جوانيته أنساقًا مخاتلة تتعلق بالمجتمع والثقافة والأيديولوجيا"[20]،فعلاً فنص القصيدة يضمر في طياته الكثير من أنساق ثقافة المجتمع الصوفي العربي الإسلامي.

وعليه تبقى إشكالية تلقي التراث النثري العربي القديم من مؤسسة النقد العربي الحديث مأزقًا تاريخيًا شكّل هاجسًا نقديًا كبيرًا لماخلقه من مفارقات متباينة بين النقاد أنفسهم،وآلية التجاوب النقدي السليم خاصة أنّ"الظروف التاريخية الخاصة بكل ثقافة والنتائج المترتبة عليها تؤثّر في تشكيل المفاهيم والمناهج"[21]،التي يجب أن تحدث فرقًا جوهريًا في عملية قراءة التراث قراءة واعية تقوم على منهج سليم تتحدد من خلاله العديد من التجارب النقدية المناسبة لعملية التلقي،ومع ذلك كله تبقى مسألة المنهج تؤرق النقد العربي بوجه خاص في عملية تلقي التراث العربي القديم،وتجاوب المنهج وأدواته الإجرائية في عملية القراءة.

-ثانيًا.- الأنساق الرمزية/المقامية في القصيدة:

إنّ معضلة استخدام المنهج، وأدواته الإجرائية تبقى مسألة بحاجة إلى إعادة النظر من طرف النقد العربي،والتنظير لها بشكل يسمح لها بالخروج من مأزق الخوف، والتحجيم الذي صاحب عملية قراءة التراث النثري على وجه خاص،وهذا مادفع بالنقد العربي قاطبًا بضرورة التفاؤل في قراءة التراث العربي دون هواجس تحدّ من قيمة القراءة،ومرجعيتها الفلسفية أو المعرفية بشكل عام،إذ يجب على الناقد الحاذق أن يكون"واعيًا وفاعلاً وبشكل خاص في تمثله لتضاريس هذا المشهد المنهجية والإجرائية ومحاولته بلورة رؤيا نقدية-أو مجموعة رؤى نقدية- تفصح عن خصوصيته وجديته في إيصال القطيعة المعرفية التي بدأت على أيدي المفكرين والنقاد النهضويين العرب إلى نهايتها المنطقية"[22]، ومع ذلك كله بقيت مسألة التلقي مشكلة عويصة في النقد العربي المعاصر لتراث ضخم متنوع يسوده الاختلاف المتباين في الشكل والمضمون،وعند عودتنا لقصيدة(تجلي المحبوب) للأمير عبد القادر الجزائر نجد هناك نسقين صوفين في القصيدة هما نسق(**الحبّ**)،ونسق(**الخمر**).

أ- نسق رمز الحبّ:

---

[20] يوسف عليمات، النسق الثقافي(قراءة في أنساق الشعر العربي القديم)،منشورات وزارة الثقافة،عمان-الأردن،ط1، 2013،ص111.

[21] سمير سعيد،مشكلات الحداثة، الدار الثقافية للنشر،القاهرة،مصر،ط1، 2002،ص40.

[22] فاضل ثامر،اللغة الثانية إشكالية المنهج والنظرية والمصطلح في الخطاب النقدي العربي الحديث،المركز الثقافي العربي ،الدار البيضاء، المغرب،ط1 ،1994، ص82.

يبدو النسق مقام الحبّ في قصيدة **(تجلى المحبوب)** نسقًا متوزايًا مع نسق خطّ القصيدة لما فيها من تعدد ثقافي صوفي، واجتماعي وثّقه الشاعر فهو شاعر عاشق مولع بمن يحبّ،حيث تماهى في عشقه "فحبّ أهل التصوف، ارتحال عن الذات،وخلاص من سجن الجسد،وعذاب نبيل،وجودٌ بالنفس هو أسمى غاية الوجود"[23]،وهذا ماجسده الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري في قصيدته حيث يقول:

"وما عرف الخلاق إلا يجمعه * لضدين من كل الوجوه تنافرًا**

و واصـــــــلني فلا تناكر بعد * وقرّبني فكان سمعًا وباصرا"**[24]

ولعلّ صورة العشق والهيام في ذات المحبوب قد أصبحت سمًا زعافًا مازال يؤرق الشاعر خاصة حين يزوره طيف المحبوب،ويتواصل معه،ومع ذلك نجد" الصوفي يعرف من أبن يبدأ لكنه لايعرف إلى أين ينتهي، إلاّ في الحبّ الذي ينتهي عنده بالتوحد بالمحبوب"[25]،وهذه الصورة هي معادل موضوعي للحلول والذوبان في المحبوب وهو الله خالق البرية،وهي آخر مقامات الحبّ،وفي هذا يقول الشاعر:

"وكم من شهيد مات بالشوق وألفنا * محب لذاك الحسن لو كان قدرا**
وكم من شهيد للغرام مشاهد * لبعض الذي شاهدت مات فأقبرا**
وذا قيس عامر تخيل نورنا * في ليلي فمات والها متحيرا"**[26]

وهنا نجد الأمير عبد القادر الجزائري مولع بحب لاينتهي وصله لكون نار الجوى تلفح روحه التي باتت بيد المعشوق الذي في قربه يزداد فناءًا،وتبقى مسألة عشق المحبوب وتجلي صوره عبر آهات الروح هي نقطة الوصل بين عالم الواقع واللاواقع فيصبح العاشق في حالة تشظي لذاته التي تبقى تتأرجح بين الآهات تارة والمنى والتمني في الوصل والتحلل في المحبّ.

ب - نسق رمز(الخمرة) السكر:

إنّ نسق التعلق برمز بالخمر هي صورة نفسية وتنفسية في الآن نفسه لكون شهيد الغرام معادل موضوعي لنديم الخمر،فالخمرة التي فتن بها الشعراء والأمراء،وتلذذ في وصفها

---

[23] عدل كامل الآلوسي،الحبّ والتصوف عند العرب،ص77.
[24] الديوان،ص121.
[25] عادل كامل الآلوسي،الحبّ والتصوّف عند العرب،ص75.
[26] الديوان،ص122.

الشعراء والغانيات خاصة شاعر الخمريات أبي نواس من خمرة حمراء وصفراء دنيوية فانية لذاتها تُصبّ في الراح تارة وفي الأقداح تارة أخرى لينتهي بالصوفي إلى البحث عن خمرة روحية ليس لها وجود مادي،هي خمرة أهل الجنان تفوقها لذة وفتنة،وهي المقصودة في ذاتها ولذاتها عند المتصوفة،ولعلّ نسق مقام الخمر عند الأمير عبد القادر الجزائري نجده"لايخلو من الشطح الصوفي،فهي خمر خاصة بالقوم،لأنها من مدامة خالصة صرفة لم تختلط بأية مادة تحيلها إلى خمر مادية(...) فهي من النوع الذي لايعرف له مصدر ولا أصل"[27]

وفي هذا المقام يقول الأمير عبد القادر:

" وإني شربت الكأس والكأس بعده * وكأسا وكأسا شيا ما أنا حاضرا**
ومازال يسقيني وما زلت قائلا * له زدني ماينفك قلبي مسعرا**
وفي الحال حال السكر والمحو والفنا * وصلت إلى لا أين حقا ولاورا "**[28]

وفي نهاية الأمر نجد الصوفي يعيش حالات من اللاوعي والفناء الذاتي بحثًا عن الخلاص مثله مثل المسيحي الذي يتجلى له السيد المسيح ليخلصه من آثامه وذنوبه تدريجيًا للتطهير والأمر نفسه عند المتصوفة فالحلول في ذات المحب والذات الإلهية هو نوع من الخلاص الروحي والنفسي لكل الأسقام.

***- خاتمة:**

وتبقى جلّ تلك المقامات الصوفية التي ذكرها نص (**تجلي المحبوب**) يمثل جانبًا هاما من الثقافة الصوفية العربية الإسلامية عامة والثقافة الصوفية الجزائرية المغاربية على وجه الخصوص، فكانت صوفية الشاعر الجزائري الأمير عبد القادر هي امتداد صريح للثقافة العربية الإسلامية بشكل ملفت للنظر من طرف النقاد، فقد شرب هو الآخر من راح التصوف نفسها حتى الثمالة.

---

[27] نور الدين صدار،البطولة، الإنسان،والتصوف...،مجلة دراسات للعلوم الإنسانية والاجتماعية، مج37،ع2، الجامعة الأردنية، الأردن، سنة2010،ص387.
[28] الديوان،ص122.

قائمة المصادر والمراجـــع:

أ- المصادر:

*- العربي دحو،ديوان الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري(جمع،تحقيق،شرح)، منشورات ثالة،- الجزائر،ط1، 2007

ب- المراجع:

(1) البشير العربي، أنتروبولوجيا التراث(التراث كرأسمال اجتماعي) المغربية للطباعة والنشر والإشهار، تونس،ط1، 2008.

(2)حفناوي بعلي،مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن،الدار العربية للعلوم- ناشرون، بيروت-لبنان،ومنشورات الاختلاف،الجزائر،ط1، 2007.

(3)يوسف عليمات،النسق الثقافي(قراءة ثقافية في أنساق الشعر العربي القديم)، منشورات وزارة الثقافة،ط1، 2014.

(4) ميجان الرويلي، سعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء- المغرب، ط3، 2002.

(5)نور الدين صدار،البطولة، الإنسان،والتصوف...،مجلة دراسات للعلوم الإنسانية والاجتماعية، مج37،ع2، الجامعة الأردنية، الأردن، سنة2010

(6) سمير سعيد،مشكلات الحداثة،الدار الثقافية للنشر،القاهرة،مصر،ط1، 2002.

(7)عادل كامل الآلوسي،الحبّ والتصوّف عند العرب،شركة المطبوعات للتوزيع والنشر،بيروت، لبنان،ط1، 1999

(8)عبد الله الغذامي، النقد الثقافي(قراءة في الأنساق الثقافية العربية)،المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء- المغرب، ط3، 2005.

(9)عدنان حسين العوادي، الشعر الصوفي حتى أفول مدرسة بغداد وظهور الغزالي، دار الرشيد للنشر، بغداد-العراق،ط1، 1979.

(10) فاضل ثامر،اللّغة الثانية إشكالية المنهج والنظرية والمصطلح في الخطاب النقدي العربي الحديث، المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء،المغرب،ط1، 1994.

(11) شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي(التجنّس،آليات الكتابة، خطاب المتخيل) ،رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة،مصر،ط1، 2006.